



النسوية وتقويض خطابات الفحولة: قراءة في المنجز
النقدي (جدل النسوية) لمحمد بكاي

**Feminism and the Undermining of Masculinity
Discourses: A Perusal of the Critical Achievement (The
Feminist Controversy) by Muhammad Bakay**

حليمة هبري

مخبر الثقافة العربية في الأدب ونقده

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 02 (الجزائر)، ha.habri@univ-setif2.dz

ملخص:

أفضت الدراسات النسوية إلى تحريك بواطن مجموعة من الأسئلة التي تخص الذات النسوية وحققها بنماذج تثويرية ما بعد حداثة تنفض من الإرث الأبوي والخطاب العقلاني الذي انبثقت عنه الثنائيات الضدية، وقضايا التراتبية بين الذكر والأنثى، ونبذت تكريس خطابات المساواة والجنس الواحد التي وقعت فيها التمثيلات النسوية الكلاسيكية، لتتخطاها إلى فحص وتفكيك البنى الثقافية والموروث الديني والنفسي، وإعادة النظر في المنظومة الفحولية وما يعتريها من ثقوب وشروخ. ومنه، يروم الموضوع الكشف عن مشهيدة الكتابة النسوية، وقضاياها المختلفة، وهذا بدراسة المنجز النسوي الغربي من زوايا متعددة، وبعين نقدية عربية تستنطق خطابات الاختلاف الجنسي وأهم الفجوات المطموسة في المؤسسة الذكورية، وذلك بقراءة كتاب المفكر الجزائري محمد بكاي الموسوم: جدل النسوية فصول نقدية في إزاحة الدوغماتيات الأبوية. الذي تعرض لمجموعة من النظريات النسوية وتحولاتها مع الموجات التي شهدتها المنجز الفكري الما بعد حداثة المنفلت من عقال الحداثة والداعي إلى سجلات فكرية تفكك مقولات سلطة العقل، وهذا ما استدعى انتفاضة نسوية ضد سلطان الرجل. وتسعى الدراسة أيضا إلى اقتفاء خطاب الجنوسة في الخطابات النسوية

الغربية، والتركيز على نموذج "جاك ديريدا" باعتبار تفكيكيته تستضيف الأنثوي ويمكن اعتبارها ثورة جندرية تزيج التمرکزات الأبوية.

كلمات مفتاحية: النسوية؛ ما بعد الحداثة؛ الاختلاف الجنسي؛ الكتابة النسوية؛ خطاب الجنوسة؛ التفكيك.

Summary:

Feminist studies have led to the emergence of a series of questions concerning the feminine self, imbuing it with postmodern revolutionary models that shake off the patriarchal legacy and the rational discourse from which binary oppositions and issues of hierarchy between males and females have arisen. These studies reject the reinforcement of equality discourses and the one-sex paradigm that classical feminist representations fell into, moving beyond them to examine and deconstruct cultural structures, religious heritage, and psychological legacies while re-evaluating the masculine system and the gaps and fractures it harbors. Thus, the subject aims to reveal the landscape of feminist writing and its various issues by studying Western feminist achievements from multiple angles, through an Arab critical lens that interrogates discourses of sexual difference and highlights the significant gaps obscured within the masculine institution. This is achieved by reading the book of Algerian thinker Muhammad Bakai titled: The Dialectic of Feminism: Critical Chapters on the Displacement of Patriarchal Dogmas, which addresses various feminist theories and their transformations alongside the waves experienced by postmodern intellectual achievements that break free from the constraints of modernity and call for intellectual debates that deconstruct the claims of rational authority. This has prompted a feminist uprising against male dominance. The study also aims to trace the discourse of gender in Western feminist writings, focusing on the model of 'Jacques Derrida,' as his deconstruction accommodates the feminine and can be regarded as a gender revolution that displaces patriarchal centrism.

Keywords: Feminism; Postmodernism; Sexual Difference; Feminist Writing; Gender Discourse; Deconstruction

1. مقدمة :

تمكنت الحركة النسوية المعاصرة من تجديد آلياتها الإجرائية لتتقرب في الصروح العتيقة عن هيمنة النظام البطريكي، مطورة نظريات النسوية التحررية ومصغية لكل خطابات الإرث الغربي، مادامت قضيتها الكبرى إعادة قراءة المنظومة الغربية بصوت أنثوي؛ يروم كشف سطوة الأنظمة المتعالية والمتمركزة أبويا وانتشال كل منسي مهمش تم إقصاؤه من المؤسسة الغربية.

لذلك جاء كتاب "جدل النسوية فصول نقدية في إزاحة الدوغماتيات الأبوية" للناقد الجزائري "محمد بكاوي" مستضيفاً للفيلق النسوي المعاصر وملتبساً بتفكيكية "جاك ديريدا" من أجل الخوض في غمار الثورة الجندرية كحلف متين استندت عليه الحركة النسوية في تبديد حجب مقولات "الاختلاف الجنسي" ولاستيعاب أسئلتهن عن الذات الأنثوية وهويتها، كما يهدف الباحث إلى السفر الجموح نحو الخرائط الأنثوية كاشفاً عن لغز كتابتهن المنفلتة من عقال القواعد اللغوية المذكورة، والمنغمسة في أخايد الجسد بعودة حروفهن إلى الأكوان البدئية المتجذرة في الرحم الأمومي الطافح بالمحبة الأبدية.

وعن طريق امتحان السفر في فصول الكتاب بقراءة تخترق نتوءاته النصية، نروم إثارة أهم المسائل والإشكاليات التي طرحها الباحث، عن أثر تصورات ما بعد الحداثة في النظرية النسوية المعاصرة؟ وكيف استطاعت النسويات أن تخترق بنيان فحولة الإرث الغربي؟ وماهي العدة الإجرائية التي مكّنت الحركة النسوية من أن توقع أثراً بالغاً في المؤسسة الغربية وتكشف عن جرثومة الخطابات السياسية للمؤسسة العقلانية الغربية التي تعيش داخل اللاوعي الإنساني وتحرضه على شتى أنواع العنف الرمزي؟

2. جدل النسوية وخطاب الإزاحة:

تصبو الحركة النسوية الغربية إلى هدم مختلف الخطابات القائمة على التصورات الذكورية الغاشمة، والحفر الواصب داخل أقبية المقولات الأبوية وما ينغرس فيها من توجهات سلطوية استعلائية؛ تسيطر على هيكله البنى الثقافية والسياسية والاقتصادية وكذلك السياقات الاجتماعية والتاريخية والنفسية، لهذا تسعى النظريات النسوية لإزاحة جيولوجية لكل الطبقات الفحولية المترسبة في اللاوعي الإنساني بفعل التواطؤات الذكورية مع الإرث العقلاني الذي هيمن بتصويراته على كل زاوية من حياة الإنسان.

فتؤسس النسوية مقولاتها النقدية من خلال نسف الخطابات الذكورية لتعيد إنتاج خطابها المجانب لكل أشكال العنف الرمزي والإقصاء والمحو، والمتعطش لرج الصروح العتيدة للبنية التراتبية القائمة على التمرکز القضيبّي "Logofallucentrisme" وتفكيك «ميتافيزيقا الذات الإنسانية والاهتمام بشكل موسّع بالذات النسوية، إلى جانب إعادة أشكلا القضايا الأخلاقية والبيولوجية والاجتماعية للمرأة وطموحاتها السياسية. وقد

شككت تلك النظرية الثقافية في كلّ تصوّر راديكالي متقدمة الرؤية الحداثية للذات، ومحاولات القيام بإصلاحات للهوية الأنثوية أو ترميم شروخها قدر المستطاع»¹. والحديث عن كتاب "جدل النسوية، فصول نقدية في إزاحة الدوغماتيات الأبوية" للناقد الجزائري محمّد بّكاي هو دعوة للظعن إلى عوالم المحبرة النسائية المصغية لصمتهم المجفف لدماء غصة تاريخ من الاستشهاد الطويل، وذاكرة مثقلة بمقولات الجنس الثاني أو التابع الأخرس، ولذلك تذكّي نصوص الكتاب -بحس نقدي يقظ- نار رغبتهم في هتك شروخ بنيان الفحولة المنتصب على عاهات المركزية البطريركية، وهدم التصورات القائمة على الهياكل الثنائية، وإعادة النظر في مباحث الحركة النسوية التحررية، ففصول الكتاب مهمومة بنظريات نسويات الجيل الثاني والثالث اللواتي عزفن عن بكائيات النسوية التحررية المنغلقة في خطابات الكراهية والمساواة، لتحدد الموجات الجديدة «المرأة كقوة لا يمكن التهوين منها في هيكله العلاقات الإنسانية والسياسية والاقتصادية والرعاية الأسرية»²، بعد تطويرهن لكل الخطابات الراديكالية وتثوير نماذجهن الفكرية انطلاقاً من «موضوع» المرأة المنطلق من حركة داخلية جوانية (الأنا/ المرأة) لينفجر على شرفات خارجية برانية (الأخر/ الرجل).³

فجدل النسوية إذن، هو بيان عن النظريات النسوية المعاصرة وتحولاتها، كما أنه يقتضي خطاب الجنوسة والاختلاف الجنسي في الخطابات النسوية الغربية، ويركز أيضاً على نموذج جاك ديريدا باعتبار تفكيكيته تستضيف الأنثوي ويمكن اعتبارها ثورة جنديرية تزيح التمرکزات الأبوية، وتجرح جرحاً غائراً الأيديولوجية الذكورية.

ويتوشح منجزنا النقدي بنظريات ثلثة من النسويات المعاصرات الباحثات في القضايا اللغوية والنفسية وخطابات الأمومي، لدى كل من جوليا كريستيفا وفرانسواز كولن، هلين سكسو ولوس ايريغاراي، الحاملات لأفاق فكرية جديدة لا تنصهر في الخطابات السطحية لحرب الثنائيات، وإنما جندن آليات التفكيك وطورن منها للكشف عن الخيوط اللامرئية المتناسلة عن فكرة الاختلاف الجنسي.

وبرؤية نقدية يتعمق محمّد بّكاي داخل الفضاء الأنثوي كاشفاً عن العدة المعرفية المعقدة التي استلهمتها النسويات للحفر في الصفائح الاجتماعية والدينية، تنقد من خلالها نقداً جذرياً كل مؤسسات التحليل النفسي المتمثلة في المدرسة الفرويدية وكذا اللاكانية التي رسمت للمرأة مناخاً ميتافيزيقياً مذكراً، وهذا ما أبحاثه فصوله المتعلقة بثورة البلجيكية

"لوس إيريغاراي" Luce Irigaray المحللة النفسية المشرحة لنظريات التحليل النفسي والثائرة على المفاهيم الممنوحة للإله من قبل الفكر المسيحي، و«التي تطفح بأسلوب ذكوري في تشكيل هوياتي للإله (...) فالمسيحية كما ترى إيريجاراي ظلت متواطئة مع الظهور الحصري والذكوري للإله وهذا التمثيل السماوي تكامل وتفاعل مع الإنتاجات الثقافية، وهو ما أدى بالمؤنث إلى الانسداد داخل قدر الرب الذي لم يعد يلتبس بلباس صوفي ورحماني بقدر ما تواطأ فيه الذكوري مع السلطوي سياسيا وثقافيا»⁴.

فقدت "لوس إيريجاراي" في معظم كتبها تقويضا للمركزية التيولوجية العقلانية ودراسات حول تشكيل الهوية في الذات الأنثوية، هذه الهوية التي مورست عليها معايير الذكورة لتكوينها وتشكيل نمط حياتها، ومع هذا فإن الناقد لم تخض غمار الحرب الضروس بين الأضداد، كي لا تقصي أي طرف من الثنائية، فالحركة النسوية للجيل الثاني « دخلت في نفق حرج حذراً من السقوط في حبال التمرکز الميتافيزيقي والإعلاء الترانسندنتالي للذات النسوية، بل بكشف مكامن جنسيتها بدقة وفطنة، كما لا تسعى إلى إحداث قطيعة مع التراث العقلاني أو عصر الأنوار أو حتى الحركات النسوية المخالفة لها، بقدر ما تنحو إلى ممارسة ترميمية كاشفة عن مكامن القوة عند النساء»⁵.

كما يطالعنا كتاب جدل النسوية على التجربة الطبيعية والحميمية للأمومة، فالناقدة كريستيفا Julia Kristeva تدعو إلى الاهتمام بالعلاقة القائمة بين الأم والطفل، والروابط الأنطولوجية التي تجمع بينهما، فمنذ مقولات التحليل النفسي سواء مع فرويد أو لاكان تم تهميش الجانب الأمومي والعواطف الوجدانية بين كيان الأم والطفل، لهذا « تزيح كريستيفا هذا الحجر الذي تتعثر فيه محاولات النقد النسوي، مركزة على موضوع الأمومة كظاهرة بيولوجية وثقافية واجتماعية غير مرئية واستثنائية، مفقودة فلسفيا ومغيبية حضاريا، فتعيد توليف هذا المفهوم في ضوء التخصصات الثلاثة: التحليل النفسي والنسوية والفلسفة»⁶.

تطرق الكتاب إلى أزمة الأمومة التي استحضرتها كريستيفا في العديد من محاضراتها، والخلل الذي يطوق الحضارة الغربية من فقدان ذلك التماهي بين الأمومة والأبوة وعلاقتها بالطفل، وعليه « يمكننا القول أن كريستيفا تخلصت من العقدة التقليدية للثقافة الأبوية التي رزح تحتها التحليل النفسي منذ سيجموند فرويد، الذي ركز على الطفل وتجاهل الأم

كذات فاعلة ومهمة، كبديل له تُعيد كريستيفا طرح استراتيجية التنقيب عميقا في أرشيفات الطفلة التي ستصبح أمّا، ومحاولة فهم رمزيّ للصّدمة الجنسية بعد الانفصال الجسدي عن الأم، والتي تختلف كثيرا عن صدمة الطفل الذكر»⁷.

ويؤكد الأكاديمي محمد بكاي على التحاف النسوية بالتحليل النفسي وهو نوع من التواشج المعرفي، ساهم في التغلغل عميقا داخل أرخبيلات العوالم النفسية، ويرى أنّ «امتزاج النقد النسوي بالتحليل النفسي هو سياسة لا تتوقف عن الإنصات بطريقة فريدة ورائعة إلى نصوص فرويد ولاكان وميلاني كلاين، وغيرهم، للاستمتاع أكثر بصوغ ثورة كوبرنيكية قادرة على خلق قيم ومعايير إيتيقية تتماشى مع إمكانات جديدة أو ممكنات للعيش مع الآخر، الغريب والدخيل، هي نوع من سياسة التعايش والاتصال مع الآخرين وفق منافذ واسعة وآفاق شاسعة»⁸.

فالنظرية الكريستيفية حسب ما طرحه الناقد هي تطوير للنسوية التحررية، عبر فيض عصارتها المعرفية المتفلجة من لدن تحليلاتها النفسية عن اضطرابات الهوية وعنف الاكتئاب المهيمن على الإنسان المعاصر. لهذا تعيد التفكير في شعارات المساواة لنسويات الجيل الأول محولة مجرى قضايا حقدن الهوية المغلق إلى الاعتراف بالآخر والتماهي معه.

3. النسوية في مرايا ما بعد الحداثة:

احتكت النظرية النسوية بالاستراتيجيات الجديدة المتناسلة عن فضاءات ما بعد الحداثة المنفلتة من عقال البرادغيم العقلاني، لتتبني فلسفة المشي على خطاها في تفجير معاقل الدوغمانيات الأبوية من داخل أنظمتها السلطوية المهيمنة، واختراق حصن الإرث الفلسفي الغربي المنيع باستنطاق ما تبطن في أرشيفاته من خطابات تتحايل على الذات.

تعيدنا انتفاضة ما بعد الحداثة على النسق الحداثي إلى أحداث ثورة ماي 1968 المناهضة لعجرفة التصورات البنيوية وما تشدقت به المدونات التاريخية من تقديس للمفاهيم الفردانية ونبد كل ما يتعالق مع الآخر الغريب والمختلف، وهو ما استدعى إنتاج رؤى إبستيمية جديدة ترج صروح البنى العتيدة التي تربع عليها عرش المركزية العقلية والسياسات الذكورية، وعبر مشهدية «ابتكار قيم ثقافية وإيتيقية جديدة تتنافس مع نظيراتها الاجتماعية أو السياسية وسط جوّ محتقن بين اتّساع الطّغيان الإمبريالي ورهانات التعدّد الثقافي، يلوح الاختلاف رؤية ثقافية بارزة، تضاعف اهتمامها بالغيرية (L'altérité) وملاحها المتخمة بالغرابة والتفرد وغير القابل للاختزال»⁹، فتعالى صخب فلسفات

الاختلاف التي فتقت وعيا محصنا برؤية نقدية ثاقبة لكل الأنظمة الخطابية، جعلت من التفكيك سلاحها للغور في لجج كل ما تناسل عن الإرث الغربي، وهو ما استدعى حراكاً نسوياً تبني التفكيك في التسلسل إلى ترابعية الهرم الذكوري، واستند عليه كاستراتيجية لتقويض التمرکزات الفالوسية المسيسة.

ويشير الكاتب محمد بگاي إلى الآثار العميقة التي حفرها التفكيك في مفاهيم النسوية، فبعد أن أعاد "جاك ديريدا" Jacques Derrida "قراءة المتون الفلسفية بفكر تخريبي استهدف قلب الموائد الأفلاطونية في مسألة التمرکز الصوتي وإعادة الاعتبار للكتابة بعد أن طالها الهجر والنسيان، وكذا إزاحة سلطة العقل بتفكيك مقولات جهابذة الفكر العقلاني إلى الإطاحة بغطرسة النسق السوسيري، هذا ما حفز الفيلق النسوي المعاصر على كسر أوهام أصنام الفكر الفلسفي الجامد وخلخلة هيكله الخاضع لنظام الثنائيات والمنحاز إلى النسق الذكوري العقلاني، «فديريدا هو الوجه الأكثر بروزاً في حديث النسويات عن المهمش والتمهيش وقضايا الاختلاف الجنسي، فأشكاليات الموضوع النسوي عنده لم تنحصر في حركة الرغبة أو شهوانية الجسد بقدر ما التفتت بقوة صوب الأسئلة الذاتية وإعادة أشكلة موضوع الهوية الأنثوية واستدراجه إلى الواجهة، (...) فأصبح التفكيك ضرورة فلسفية لتوضيح قضايا الاختلاف الجنسي والنقاط الهامشية في الجندر وإدخالها إلى هموم المشهد الفلسفي وعرض تكتيكات مقاومتها أمام كل خطاب مهيم أو طرح متغطرس»¹⁰.

لذلك تنخر الثورة النسوية المعاصرة في المبادئ التي رسمتها الثقافة الغربية من الهوية الجنسية ومساائل الجندر والاختلاف الجنسي إلى تفتيت كل خطاب ثقافي مهيم؛ مخترقة بذلك كل التصورات الذكورية عن الذات الأنثوية وهويتها، ومتجاوزة لها بإنتاج خطاب جديد أكثر استيعاباً لذات المرأة، ولهذا تشتبك آلياتها الإجرائية مع التفكيك من أجل تخريب البنية الثنائية ومن ثمة فهي «تستلهم نموذج ديريدا الذي يقول بأن الهياكل الثنائية ستظل دائماً تميز أحد الزوجين على الآخر، مثل المذكر عن المؤنث. وبدلاً من محاولة قلب هذا الوضع بحيث يصبح المؤنث متميزاً عن المذكر، مثلما تحاول النسوية التحريرية أن تفعل، فإن النسوية المعاصرة تحاول خلخلة الهياكل الأساسية التي تقوم عليها تلك الثنائية»¹¹.

والمسألة كما نرى، لم تعد متعلقة بالصراع بين الثنائيتين والتزمت داخل قوالب التمييز الجنسي، وإنما بالحفر الجينيولوجي في الطبقات الرسوبية للخطاب الجنساني واجتثاث الفضاءات اللامرئية أو المهمشة الكامنة في ثنائية المذكر/ المؤنث، فنظريات ما بعد الحداثة ترفض نماذج التمرکز الأحادي لهذا فتحت نوافذها على استضافة الغريب المهمش في الحواشي الثقافية، واستحضار الهجين الشاذ المشطوب في الفكر الغربي، وهذا ما دفع المشروع الديريدي والنسوي إلى الحديث عن الهوية المتلبسة بغيرتها، فكل هوية ترجأ إلى فضاءات لانهائية متعذر حجبها في صفة جنسية واحدة، وحجتهم في ذلك أن الهوية الإنسانية قائمة على الازدواجية الجنسية فهي مسكونة بالتعدد والتقنع وقائمة على روح الاختلاف، إذ لطالما كانت الهوية الجنسية « تفرض على الجنسين منذ النشأة الأولى، فيدفع الأطفال بصورة منتظمة إلى دور جنسوي يتناغم وجنسهم »¹². لهذا يكشف ديريدا "عن البعد النفسي المعقد الذي تشغل عبره الذات الجنسية (êtresexué) وكيف تحتجب وتتجلى في أكثر من وجه دون توقّف (أنثوية الرجل من خلال حنانه وعواطفه تجاه طفله مثلاً، أو ترجّل المرأة وفحولتها وهي في مواقع الحزم والشدة). فالمعيار الخالص والحقيقي للممثل (representamen) هو أن تكون "أنا" و"آخر" في ذات الوقت، وهذه البنية الازدواجية للهوية هي التي تشقّ مساراً متعدداً للألوان الجنسية (مثلي أو متعددي الجنس)، لهذا تروم المساعي الديريدية إلى «فتح حيز لقدم "الآخر"، الغريب والمختلف والشاذ، ويرتاد آفاق "الربما" (Le peut-être) لخطاب تاريخي آخر، ولرؤية مختلفة للتقليد والتراث؛ لأن الفكر هو التساؤل حول الشيء ونقيضه، بوصفهما احتمالين قابلين لأن يتصف كل منهما، بصفة الحقيقة»¹³.

وبالتالي، استدرجت النسوية الهوية الجنسية -على الخطى التكتيكية للتفكيك- إلى مدارات تنفلت من أصل محدد متمركز، فتورتهن الجندرية أزاحت الخطوط الفاصلة بين (الهو) و(الهي) وفتحت أطاريجهن الفكرية لاستيعاب ايتيقا الاختلاف الجنسي. كما استطاعت النسوية أن تستلهم ثورة ما بعد الحداثة بانقضاضها على المثل العقلانية الغربية إذ «يكمن التطابق بينهما في نقد العقل وسردياته الكبرى، محدثة سجلات فكرية وصخباً نظرياً تمركز حول نقد سلطان الرجل، محاولة ابتكار أو إسقاط نوع من التقابل والتماهي بين سلطة العقل وسلطة الرجل/ الذكر»¹⁴. ومن ثمة فصيحة النسويات بمقولة "موت الرجل" على غرار النعوش المرافقة لإله "نيتشه" وإنسان "فوكو" ومؤلف

"بارت"، تمثل قتلاً رمزياً لسلطة المنظومة الأبوية المهيمنة ولتاريخ طويل شهد جفول المشهد الأنثوي من ركح الإمبراطورية الذكورية.

4. من ليل الحكي إلى نهار الكتابة: من أجل نموذج لغوي جديد:

يصغي محمد بگاي إلى أهم المباحث الفكرية التي تناولها الخطاب الما بعد حدثي عند اقتترانه بالنظريات النسوية، فهو يشير إلى تمكن فلاسفة الاختلاف من توقيع خطاب جديد يروم افتضاح ما اندس تحت تربة النصوص الثقافية الغربية، ليكون التشكيك مذهبهم الأثير لافتكالك أوهام الحداثة والتنوير، والتفكيك والحفر الجينيالوجي آلياتهم الإجرائية للقبض على الخطابات الماكرا المحركة للجحافل البشرية نحو فكر أحادي الرؤية خاضع لسطوة المتعاليات من أنظمة كهنوتية وسياسية قوت من شوكة الخطابات السلطوية، فالخطاب كما ترى "رجاء بن سلامة": «ليس مجرد قول يكشف أو يعبر عن ممارسة، بل هو نفسه ممارسة وفعل في الواقع يسير وفق قواعد أو آليات تخلق الموضوع وتضع الحدود والموانع والمعايير»¹⁵ فكل خطاب يتحول مع الزمن إلى أعراف وتقاليده جامدة يصعب كسر أغلالها، بالإضافة إلى كونه ينقلب إلى أيديولوجية متسلطة لها توجه معين ليهيمن على المؤسسة الإنسانية. «فإنتاج الخطاب في كل مجتمع هو إنتاج مراقب، ومنققي، ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها الحد من سلطانه ومخاطره.»¹⁶

ومن ثمة، توجهت الحركة النسوية المعاصرة -على حسب ما أثاره الباحث- إلى نسف كل الخطابات الممسوسة بنظرة انحيازية تقصي "المرأة" من أدوارها الفاعلة في البيئة الإنسانية وتزج بها في مقولات الشيطنة، أو اعتبارها وعاء جنسياً أو حتى اتهامها بالعجز في التفكير العقلاني فهي رهينة الانهيارات العاطفية على حد زعمهم، لذلك تم إقصاؤها من حقوقها السياسية لمدة طويلة وأحيلت إلى زوايا التهميش والغياب، وبذلك تم شطب حضورها من كل الخطابات لأنَّ «الأنثى حين تتمتع بحرية الخطاب، وتنوّع الاستعمال بما يلائم الدور المنوط بها، فإنه سيغتني معجمها الذهني ويتنوّع، وهذا يؤكد ارتباط قوة الخطاب بروافد الحضور»¹⁷.

لهذا، رجحت الحركة النسوية على منوال مبادئ ما بعد الحداثة صروح الإرث الغربي مخربة بنيته وكاشفة عن سمومه، مستحضرة ظلال المرأة المغيبة من أرشيفاته، عن طريق تفعيل كتابة مضادة لكل الخطابات المتحيزة لسطوة الذكر، «فالكتابة النسوية مغمورة

بالتفكير مليا وبشكل خلاق في تغيير أعراف اللغة وأنماط الكتابة»¹⁸، وخروج المرأة من الليالي المدلهمة المحبوبة بصوت شهرزاد المتوجس من الصباحات المنذورة لجبرية الصمت، وولوجها إلى عوالم الحرف أكسبها عبقرية سلب اللغة الراححة تحت سطوة الفحولة والانغماس في تفكيك القواعد النحوية المتحائلة على الذات الأنثوية، فليست هناك لغة بريئة بل كل نظام لغوي متورط في تشييد حدود تفصل بين المؤنث والمذكر وهذا ما يعكس خروج المرأة من «الصيغ الضيقة لتفكير يشلها إلى مدّ أرحب للتمرد والسيرورة، لتنزلق بعمق داخل مخاوفها وأحلامها الملمغة. موظفة لغة مجازية تجعل من حركة النساء وجسدهن في حركة مضاعفة ومزدوجة لتصحيح الأفكار الخاطئة التي أسسها الخطاب الأبوي، والتجذر داخل الذات النسوية والتعمق في انكساراتها ورتق جروحها»¹⁹.

من هذا المقام خاضت الحركة النسوية المعاصرة حرومها تجاه القواعد النحوية المعفّرة بالمنطق الذكوري، باسطة كتابة أنثوية شرسة تنتشل تاء التأنيث المؤفّودة من تابوت النظم الأبوية الأحادية لتطيح بالأبجدية الفحلة، وتتمكن المرأة من أن تتكلم أخيرا خارج الصروح الأبوية، لذلك تعيد ترتيب قواعدها عبر خلق لغة أخرى مستغرقة في فك شفرات براديجم الجنسانية، مادام السلوك اللغوي قد انجرف إلى النظام الرمزي الذكوري مسهما في إنتاج خطاب متعالي غير عادل، وهكذا تكون الكتابة النسوية كتابة «جريحة لتخبرنا عما يمكن أن نكون، ما تعانيه ذواتنا ومخاوفنا ووساوسنا التي تتجلى عبر النصيات والسرديات والأحلام المتوحشة»²⁰.

قادت جسامتها اللغوية إلى اقتحام المنظومة الذكورية وتمكنها من تعرية جذور الخطابات الضارة والتعبير بلغتها عن ذاتها المكلومة الغاصة في صخب حروفها الأنثوية المستسلمة للوغة الاكتئاب، إذ تقول جوليا كريستيفا «ألمي هو الجانب الخفي من فلسفتي، شقيقتها البكماء»²¹ فالوشائج الدلالية الرابطة بين الكتابة/ الاكتئاب تطفح في النصوص النسوية خاصة مع جوليا كريستيفا التي أعادت قراءة المدونات النفسية لفرويد ولاكان وكشفت عن جينوم الميلانخوليا المتستر تحت جلد النصوص الإبداعية وهي الرؤية التي كسرت أنانية النظام البنيوي المحايث الذي يستغرق في تأمل نسقية النص وتقسيمه إلى قوالب جامدة دون العبور إلى تجاويله المسكونة بالتذبذبات النفسية المحركة لطاقت العلامة السيميائية.

5. خاتمة:

ومؤدى القول إنّ الخطاب النقدي النسوي العربي الذي أثاره الباحث الجزائري محمّد بڭاي في فصول كتابه "جدل النسوية" قد أخذ منحى مختلفاً عن الخطابات العربية النقدية الهادفة إلى إثارة مسائل النسوية، وذلك لما تناسل عنه من رؤية تستضيف الآخر الغربي وتعرف بأهم الانعطافات في منجز ما بعد الحداثة واستثمار المحبرة النسوية لتصوراتها، ومن ثمة نخلص إلى:

-تستضيف رحلة المؤنث في شكلها الما بعد حداثي مواجهات للسلطة الذكورية الغاشمة، ساحبة نفسها من الجدل والصراع، إلى فرض جديدة للحوار والتواصل مع الآخر المختلف.

-سعت جهود كل من: جوليا كريستيفا ولوس ايريغاري إلى خلق لغة هشاشة أنثوية، تخترق متون النصوص النفسية من جهة وتعيد قراءة ترسانة من الفلسفات الذكورية من جهة أخرى، محطمة كل التمثيلات التي عشت في الفكر الغربي المبني على مركزية الواحد المذكور.

-ساهمت طروحات التفكيك في دعم قضايا الاختلاف الجنسي ومساائل الجندر، المنبثق من رحم الدراسات النسوية.

-كتاب المفكر الجزائري محمد بكاي، جدل النسوية، هو صوت آخر يستدعي المسكوت عنه في ثقافة الاختلاف الجنسي، ويسد نقصاً ميراً تعاني منه المكتبة العربية في قضايا النسوية الداعية للالتحام والالتئام، فالاختلاف هو ائتلاف في نهاية المطاف.

6. مراجع البحث وإحالاته:

¹ محمّد بڭاي، جدل النسوية فصول نقدية في إزاحة الدوغماتيات الأبوية، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2019، ص: 21.

² المصدر نفسه، ص: 56.

³ المصدر نفسه، ص: 57.

⁴ المصدر نفسه، ص: 40.

⁵ محمّد بڭاي، التفكيك وفسيفساء المعنى، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ص: 56.

⁶ محمّد بڭاي، جدل النسوية، ص: 167.

- ⁷ المصدر نفسه، ص: 169.
- ⁸ المصدر نفسه، ص: 170.
- ⁹ المصدر نفسه، ص: 21.
- ¹⁰ المصدر نفسه، ص: 57.
- ¹¹ سارة جامبل، النسوية وما بعد النسوية (دراسات ومعجم نقدي)، ترجمة أحمد الشامي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2002، ص: 94.
- ¹² عيسى برهومة، اللغة والجنس، حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة، دار الشروق، عمان، 2002، ص: 32.
- ¹³ محمد بكاي، جدل النسوية، ص: 68.
- ¹⁴ المصدر نفسه، ص: 27.
- ¹⁵ رجاء بن سلامة، بنیان الفحولة، أبحاث في المذكر والمؤنث، دار بتر، سورية، 2005، ص: 114.
- ¹⁶ عيسى برهومة، اللغة والجنس، ص: 35.
- ¹⁷ المرجع نفسه، ص: 38.
- ¹⁸ محمد بگاي، جدل النسوية، ص: 29.
- ¹⁹ محمد بكاي، التفكيك وفسيفساء المعنى، ص: 64-65.
- ²⁰ محمد بگاي، جدل النسوية، ص: 29-30.
- ²¹ المصدر نفسه، ص: 95.
- 7. قائمة مراجع البحث وإحالاته:**
1. رجاء بن سلامة، بنیان الفحولة أبحاث في المذكر والمؤنث، دار بتر للنشر والتوزيع، سوريا/ دمشق، الطبعة الأولى، 2005.
2. سارة جامبل، النسوية وما بعد النسوية (دراسات ومعجم نقدي)، ترجمة أحمد الشامي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، الطبعة الأولى، 2002.
3. عيسى برهومة، اللغة والجنس، حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة، دار الشروق، عمان، الطبعة الأولى، 2002.
4. محمد بگاي، التفكيك وفسيفساء المعنى، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 2018.
5. محمد بكاي، جدل النسوية فصول نقدية في إزاحة الدوغماتيات الأبوية، دار الأمان، الرباط، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، (لبنان/ الجزائر)، الطبعة الأولى، 2019.